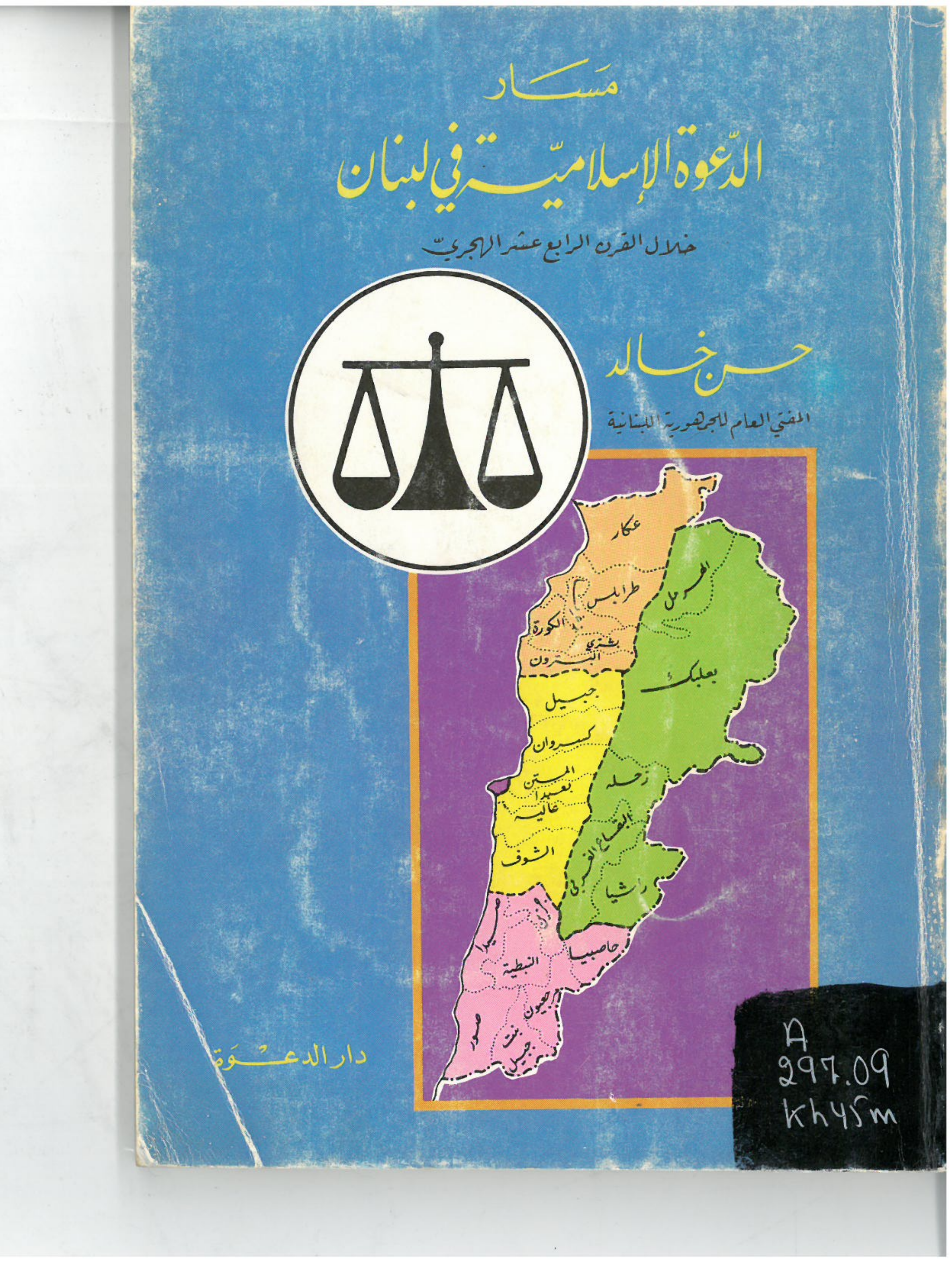

مسار
الدّعوة الإسلاميّة في لبنان
خلال القرن الرابع عشر الهجريّ
حسن خالد
المفتي العام للجمهورية اللبنانية
عكار
طرابلس
الكورة
بشري
البترون
جبيل
كسروان
المتن
بعبدا
عاليه
الشوف
الهرمل
بعلبك
زحلة
البقاع الغربي
راشيا
حاصبيا
النبطية
مرجعيون
بنت جبيل
دار الدعـوة

مَسَار

الدّعوة الإسلاميّة في لبنان

خلال القرن الرابع عشر الهجري

حسن خالد

المفتي العام للجمهورية اللبنانية

دار الدعـوَة

الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الإسلام دين الله

لا ريب أن كل مولود يولد على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وان التغيير في فكره واتجاهه النفسي هو فعل الآباء، اذ يعدِّلون في وجهة نظره مع النشأة فيجعلون منه وثنياً أو يهودياً أو نصرانياً أو غير ذلك. وقد ورد في الصحاح قوله ﷺ: «كل مولودٍ يولد على الفطرة، حتى يُعرِبَ عنه لسانه، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه»(١).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي الجزء الخامس صفحة ٣٣. و«صحيح الجامع الصغير» - المجلد ٤، رقم ٤٤٣٦.

والفطرة هذه هي دين التوحيد، الذي أخذ الله الاصر والميثاق عليه من بني آدم. والقرآن الكريم يلفت نظرنا اليه فيقول: « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ »(١).

ودين التوحيد هو جوهر دين الاسلام الذي ارتضاه الله للناس بقوله: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً »(٢). وقوله: « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(٣). وقوله في السورة نفسها: « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ؛ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ

---

(١) الاعراف ١٧٢.
(٢) المائدة ٣.
(٣) آل عمران ٨٥.

فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ؛ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ؛ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ابْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »(١).

الاختلاف فعل الناس

ولئن كان الناس قد اختلفوا وعددوا دينهم الواحد فذلك بفعلهم، لاتباعهم الهوى وانصرافهم عن الحق المبين الى دعوات الشيطان الزائغة، الذي حذّرهم الله منه ومن كيده بقوله: « قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ؛ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ »(٢). وقوله: « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ

---

(١) آل عمران ٨١ - ٨٤.
(٢) الاعراف ٢٩ - ٣٠.

يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »[1]، وقوله: « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ »[2].

الكتب السماوية واحدة في أصولها

وهكذا فإن إنزال الكتب وإرسال الرسل، كان يخرج دوما من مشكاة واحدة؛ فالرسل رسل الله، أنزل عليهم وحيه وحملهم كتبه وصحفه التي احتملت عقيدة التوحيد ولم تزد عليها، وان كانت قد احتملت من فروع الشريعة وآدابها ما كان في العهود القديمة يناسب فكر أولئك الاقوام وعاداتهم وطباعهم، لتتدرج بهم الى العهد الذي امكن فيه انزال القرآن الكريم، الذي ختم الله به الكتب، وجمع فيه الأصول التي فيها، وقرنها بالتشريعات والأخبار والآداب التي تصلح للبشر حتى تقوم الساعة. كما ختم الرسالات جميعاً برسالة محمد ﷺ الذي حمله مع

(١) يس ٦٠ - ٦١.
(٢) الجاثية ٢٣.

القرآن مثله، من الحديث المفصل، والموضح الذي لا يخرج عنه في شيء. وجعله الله موجها الى الناس كافة بقوله تعالى: « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً » وقوله ﷺ: « كان كل نبي يبعث الى قومه وبعثت الى الناس كافة »[1].

كل هذا التفصيل كان للتأكيد بأن المسلمين في كل مكان وفي لبنان على الخصوص، كانوا وما زالوا، وسيبقون يدركون أبعاد جذور الصلة الدينية بينهم وبين اتباع الرسل السابقين، وبخاصة الذين يقاسمونهم أرض الوطن ويشاطرونهم نعمه وخيراته ويقدرونها، ويؤمنون بوجوب تحسينها وتمتينها والاستفادة منها، ويعملون ما وسعهم وبمختلف الوسائل واللقاءات إنسجاماً مع أمر الله ووصايا رسوله الامين على تطوير هذه الصلة واحسانها وتطويعها لتكون دوماً في خدمة التعاون الصادق النبيل والتضامن الوطني البناء.

(١) مسند أحمد ٢/٤١٢. و« صحيح الجامع الصغير »، للمحدث الالباني برقم ٤٠٩٦.

بدء الصراع بين الحق والباطل

بيد انه لما تحكمت بالناس أهواؤهم أضلتهم عن هدى الله فاختلفوا وتفرقوا. وكان منهم من ثبت على الايمان قلبه، ومنهم من انحرف وحرَّف ما بين يديه مما وصل اليه من الحق[1]. ومنذ ان بعث الله محمداً ﷺ وانبثق فجر الاسلام على ارض الجزيرة انفجرت ضده حرب ضروس، تريد ان تطفىء نوره، وتطمس معالمه، وتغلق دونه منافذ الولوج الى قلوب عباد الله.

ولئن كانت له الغلبة عليهم في الماضي، الا انهم ظلوا يكيدون له ويأتمرون به، ويصدون عنه، ويزوّرون عليه ويتصدون له بالعداوة التي لا تعرف اكتفاءً بشكل أو وسيلة، وتندفع غير آبهة بحكمة او قيمة أدبية، سراً وعلانية، ومواجهة ومداورة، الى ان كان القرن الرابع عشر الهجري حيث كانت معاودة الدول الاوروبية نشاطها في هذا الخط يحفزها أمران

(١) راجع كتاب «الانجيل والتوراة والقرآن والعلم» طبعه دار الكندي للدكتور موريس بوكاي.

١ - حقد بعض جهلتها والمتعصبين منهم على الاسلام الذي ظلَّ مجهولا عندهم،

٢ - وطمعها بالثروة...

وكان من المناطق التي استهدفها هذا النشاط المنطقة الساحلية الجبلية المعروفة اليوم «بلبنان» هذا البلد العربي المكافح الذي ما يزال مسلموه حتى اليوم ورغم كل المحاولات التبشيرية التي اجريت فيه، صامدين صمود جباله الراسيات، ومحافظين على طابعه الشرقي والعربي والاسلامي.

تعريف لبنان

لبنان هو الرقعة من الأرض الممتدة على ساحل البحر المتوسط من بلاد الشام، ما بين النهر الكبير شمالا، والناقورة جنوباً، والبحر الابيض غرباً، وسلسلة الجبال الشرقية شرقاً.

وقد أطلق عليه هذا الاسم لوجود الجبل الابيض فيه الذي تكسو قممه الثلوج.

غير أن هذا الاسم لم يكن يطلق غابراً الا على بعض اجزاء المنطقة الجبلية منه، ذلك لأن البلاد كلها كانت جزءاً من سورية[1].

بل ان المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» عرف لبنان بقوله: «ان لبنان جبل ساحلي مشرف على صيدا وطرابلس»[2].

---

(١) عروبة لبنان للإستاذ محمد جميل بيهم - رحمه الله - صفحة ٢٠٠.
(٢) احسن التقاسيم صفحة ١٨٨.

وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت المنطقة الجبلية التي تشتمل على الاقضية السبعة: الكورة، وبْشِرّي، والبَتْرون، وجبل كِسِرْوان وزَحْلة والمَتْن وجِزّين متصرفية تابعة لولاية بيروت مع انفصالها عنها[1]. ثم ضمَّ المنتدب الفرنسي اليها الاقضية الاربعة الكبرى: قضاء صيدا، وقضاء بيروت، وقضاء بعلبك في البقاع، وقضاء طرابلس في الشمال، وذلك بعد سنة ١٩٢٠ ميلادية وأطلق عليه اسم دولة لبنان الكبير[2].

ومع ذلك فقد ظل لبنان حتى بعد هذه الضمائم الجديدة يمثل رقعة صغيرة من الأرض لا تزيد مساحتها على العشرة آلاف كيلو متراً مربعاً، كما لا يربو عدد سكانه التقريبي على الثلاثة ملايين، أي بنسبة ما تحويه عاصمة متوسطة من عواصم دول العالم.

شعبه:

ولقد مرت على لبنان هذا شعوب كثيرة من أهمها:

---

(١) عهد المتصرفين في لبنان بقلم احمد خاطر صفحة ٢٥.
(٢) لبنان في التاريخ فيليب حتي صفحة ٥٩٦.

الكنعانيون والفينيقيون، والعبرانيون، والأشوريون، والاغريق، والرومان، وثم العرب والاتراك.

دينه:

وقد حمل بعض الأوائل من هؤلاء اليه الوثنية بكل صورها وأشكالها حتى تأصلت فيه، ودامت لمستهل القرن الخامس الميلادي حيث أظلته المسيحية[١].

ولما دخله العرب في مطلع القرن السابع أدخلوا عليه الاسلام، الذي ظلَّ مهيمناً عليه حتى هذه الفترة من التاريخ.

وقد ظل النصارى يسكنون في ذرى جباله وبطون أوديته ويتجافون عن الساحل الذي سكنه المسلمون. واستمروا حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأ نزوحهم اليه تدريجياً واكتمل في فترة الانتداب الفرنسي ثم العهد الاستقلالي، الذي اختلطت فيه مساكن المسلمين

(١) نفس المصدر ٢٦١.

بمساكن النصارى، واشتركوا دونما حرج في إعمار أحياءٍ واحدةٍ في الساحل والداخل والجبل على السواء...

تعدد طوائفه:

وعلى الرغم من أن الاسلام والنصرانية هما اللذان يهيمنان اليوم على شعب لبنان، فان هذا الشعب ينقسم الى طوائف عدة منها:

١ - السنّيون، والشيعة، والدروز، والعلويّون، وهم الذين ينتسبون الى الاسلام.

٢ - والموارنة، والكاثوليك، والارثوذكس، والبروتستانت، والسبتيون، والانجيليون الذين ينتسبون الى النصرانية.

ولكن الطوائف الكبرى الحاكمة فيه هي: السنة والشيعة والدروز، والموارنة والكاثوليك والارثوذكس.
أما السنة فهم غالبية في بيروت، وصيدا، وطرابلس، والبقاع، وقلة فيما عدا ذلك.

وأما الشيعة فهم غالبية في الجنوب، وقلة فيما عدا ذلك، وان كانوا يتكاثرون في البقاع الشمالي.

وأما الموارنة فهم كثر في جبال كسروان واقليم بشري، وزغرتا، والمتن الشمالي، وقلة فيما عدا ذلك.

وأما الارثوذكس فيتكاثرون في بيروت وبعض القرى الجبلية. وكذلك الكاثوليك والبروتستانت.

والدروز الذين يتكاثرون في الشوف، وبعض قرى المتن الجنوبي.

زمن دخول المسلمين الى لبنان

لقد دخل المسلمون لبنان في عهد أبي بكر رضي الله عنه الخليفة الأول. ثم ثبّت معاوية رضي الله عنه فيه حكم الاسلام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولبنان الذي أصبح تابعاً لجند دمشق في عهد يزيد بن معاوية، إنفتح لموجات الجموع الاسلامية التي كانت تتدفق عليه من الجزيرة العربية، وتأخذ مواقعها على سواحله بعيداً عن مرتفعات جباله وأغوار وديانه، لوعورتها وصعوبة مسالكها وبرودتها، ولمقاومة مرتزقة الجراجمة النصارى الذين لا يعرف التاريخ عن أصلهم شيئاً[١] والذين كان يسخرهم ملوك الروم لقتال المسلمين في لبنان.

---

(١) لبنان في التاريخ فيليب حتي ٢٩٧.

رغبتهم في الاستيطان فيه

بيد ان هذا كله لم يمنع مع الزمن من تغلغل المسلمين في جباله ووديانه ومدنه وقراه فضلا عن سواحله... فقد كان كما يقول المؤرخون، لطيب مناخه وصفاء هوائه وعذوبة مياهه ووفرة خضرته وثماره واعتدال جوّه، مهوى أفئدة العبّاد، ومستقر الصالحين والعلماء والمفكرين والزهاد. وانك لتستطيع من خلال سياحتك فيه، أن تلقى في كثير من وديانه وروابيه وسهوله وسواحله أضرحةً للأولياء والصالحين، أو أثراً لظاهرة اسلامية استقرت فيه في فترة من الزمان الخالي. ولا غرو فقد كانت جباله ملاذاً للمتصوفة والصالحين، ولو لفترة ما، كَذِي النّون المصري، وابي النصْر بِشْر بن الحارث الحافي، وابي عبدالله الساجي، وسري السقطي وأبي بكر محمد الوراق، والجنيد، وابراهيم بن نصر الكرماني وابراهيم بن ادهم وغيرهم[١].

وهل ننسى في هذا المجال مقام الإمام الاوزاعي في

(١) مجلة «الفكر الإسلامي» في العدد السابع السنة السابعة مقال للدكتور تدمري.

بيروت، والصاحبين: أبي روح شبيب الكُلاعي، وشرحبيل بن حسنة في صيدا، ومقامات العديد من الانبياء، كالنبي شمعون ويحيى والخضر وغيرهم كثير من انبياء بني اسرائيل، ومقامات بعض الاولياء كمقام الشيخ موسى ابن الشيخ حسن الراعي، والشيخ علي الغزّي في صيدا، والشيخ عزالدين في طرابلس، والشيخ عبدالله اليونيني في بعلبك وغيرهم[١].

ولو انك طفت بأرجاء اوديته ومرابع سفوح جباله لرأيت ما يؤكد ذلك، وبخاصة في جونيه وغَزِير ومناطق مختلفة من جبال كسروان النصرانية اليوم.

بيد أن أوضاع هذا الجبل ظلت في اضطراب لا تعرف الاستقرار مع تقلب الازمان، حتى رأينا الاستاذ لحد خاطر يقول: بأن أحسن أحوال لبنان كانت في أواخر عهد السلطنة العثمانية، أي في مطلع القرن التاسع عشر، حيث أصبح متصرفية، تابعاً لولاية بيروت، مع انفصاله عنها داخلياً[٢]. وهو العهد الذي حكم فيه هذا

(١) الرحلة الطرابلسية لعبد الغني النابلسي صفحة ٩ و٣٤، ٣٥، ١٠٣.
(٢) عهد المتصرفين في لبنان ٢٥.

الجزء نفسه بواسطة مجالس محلية، وتكفلت السلطنة بأن تسدد عنه كل عجزه. وكان يمثل فقط الجبال الصخرية التي تشتمل على الاقضية السبعة التي سبق وأشرنا اليها. بل انها في الفترة المتراوحة بين سنة ١٨٤٠م و١٨٦٠م ثم ١٩٠٧م و١٩٢١م أي تقريباً ما بين أواخر القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر الهجري، قد ترددت كثيراً وبخاصة بعد ان امتدت اليه الاغراض الاجنبية عن طريق قنصلياتها، ولعبت فيه ادوارها الخطيرة على كل صعيد، كما سنرى بعضها فيما بعد، فتساقطت بسببها وبأيديها مداميك الدولة العثمانيّة واحداً بعد الآخر ثم زال سلطانها عن الشرق العربي الاسلامي، في الوقت الذي اخذ يتقلص معه الوازع الديني في النفوس بتقلص العلم الديني من القلوب، وتتسع الهوة بين المسلمين وكتابهم وسنة نبيهم شيئاً فشيئاً...

وضع الامبراطورية العثمانية
ما بين ١٨٣٠م و١٩٢٠م

لقد كانت منطقة الشرق الأوسط بما فيها سوريا ولبنان تخضع فيما بين ١٨٣٠م - ١٩١٨م الى الامبراطورية العثمانية، التي كانت اذ ذاك في عمرها الأشيب وشيخوختها الواهنة، بسبب الحروب المتوالية التي خاضتها مع الروسيا ثم مع بونابرت سنة ١٧٩٨، ثم بالانتفاضة الثوريّة التي شبّت في داخلها وضدها من رعاياها في الجزيرة العربية بزعامة محمد بن سعود ثم ابنه عبدالعزيز، وحملته على الكويت سنة ١٧٨٨ ثم على مكة سنة ١٨٠٣ ثم على المدينة. ثم من ابراهيم باشا ١٨٣١ - ١٨٤٠، وبالثورات الاستقلالية والانفصالية التي حرضت عليها انكلترا وفرنسا وروسيا في اوروبا، في الصِرْب والمجر وبلغاريا واليونان حتى أنجحتها[1]. واخيراً الفتن الاهلية التي اندلعت في لبنان ما بين

(١) كيف هدمت الخلافة عبدالقديم زلوم ١٠ - ١٧.

١٨٤١ - ١٨٦٠ وانتهى بها حكم الامراء فيه ليحل محله حكم المتصرفين.

مطامع الدول الاجنبية ودورها:

ولقد استغلت دول الغرب هذا الضعف وتحركت لتحقيق أطماعها في الشرق فنفذت الى اجهزة الدولة العثمانية، وتحكمت فيها عسكرياً وسياسياً واجتماعياً[١].

لبنان في هذه المرحلة:

ولئن كانت الدولة العثمانية قد اسدلت، بدافع الحرص على سيادتها وعلى مصالحها في الشرقين الأدنى والأقصى، أستاراً كثيفة على جميع ولاياتها فحجبت عنها في الغالب ضياء العلم، الا انها جعلت للبنان وضعه الخاص، لأنه يطل على البحر الابيض المتوسط، ولأنه يضم عدداً كبيراً من المسيحيين الذين تربطهم بالغرب الأوروبي روابط الدين والثقافة.

---

(١) عهد المتصرفين في لبنان ٩.

نشاط الارساليات التبشيرية:

وقد ساعدت الارساليات التبشيرية بنشاطاتها المتنوعة في كل مجال على اعطاء لبنان هذا الوضع الخاص، وعلى تطوير الناحية الاجتماعية فيه وفي سوريا، ودفع الشعب فيها الى الاستزادة من العلم والثقافة الحديثين اذ ادركت اهميتها[١] فاتجهت الى الاكثار من المؤسسات العلمية وتنويعها كانشاء المدارس والمطابع والصحف ودور الترجمة ومراكز الكتب[٢].

وضع المسلمين:

ولكن نصيب المسلمين من هذا التطور ظل محدوداً، وفي المستويات العائلية الثرية او المتوسطة، في الوقت الذي ظل فيه المجتمع الاسلامي العام محروماً من كل ذلك، ومكتوباً عليه الكدح ليؤمن رزقه، ويسدد الضرائب التي فرضتها الدولة عليه، او مطلوباً الى الجندية ليدافع عن حمى الأمة. بينما استثني المسيحيون

---

(١) لبنان في التاريخ ٥٥٣.

(٢) لبنان في التاريخ ٥٥٦ - ٥٩.

من ذلك، بل ومن دفع الضرائب، كما استثناهم ابراهيم باشا عندما حكم هذه المنطقة[1].

ولذلك فان هذه الفترة التي انصرمت ما بين أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، اي تقريباً بداية القرن الرابع عشر الهجري، اذا كانت قد شهدت في لبنان ازدهاراً تربوياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً في الوسط المسيحي، فكان منهم العلماء والأدباء والصحفيون امثال خليل وسليم سركيس ويوسف سركيس صاحب معجم المطبوعات العربية المصرية، وبطرس البستاني، وناصيف اليازجي، وخليل الخوري، وخليل سركيس، ويعقوب صروف، وسليم تقلا، وبشارة تقلا، وفارس نمر، وجرجي زيدان، وجبران خليل جبران، وامين الريحاني، الخ...

فقد شهدت في الوقت نفسه الغياب والتخلف التربوي والادبي والاجتماعي في الوسط الاسلامي على العموم، لولا بعض التحركات الجماعية او الفردية هنا وهناك، والتي

(١) لبنان مباحث علمية ٣٥٤.

نتج عنها انشاء بعض الجمعيات والمؤسسات التربوية او الدينية من بعض الأسر امثال آل بيهم، وسلام والصلح وبربير، وحوت، وخالد، ونجا، وفاخوري، والجسر، ورافعي، ورضا، وحشيشو، وخياط وفي حدود ضيقة جداً، او من بعض الأفراد مثل الشيخ عباس الازهري الذي انشأ مدرسته الشهيرة سنة ١٨٩٧ في بيروت.

أما الدولة، فقد اكتفت بالاعتماد على الكتاتيب والمدارس الأولية التي كان ينشئها الافراد تلقائياً بدافع الرغبة في اكتساب لقمة العيش في اغلب الاحيان، وعلى بعض ما أنشأته منها مما لا يكاد يذكر كالمكتب السلطاني في بيروت... ولم يكن لها من همٍّ إلا مصادرة الشباب الى الجندية من العزاب والمتزوجين الذين يتركون اسرهم في الغالب عالة على أهلهم او على ازواجهم اللواتي كن يتحملن مسؤوليتهم متعرضات الى قسوة الحياة ومرارة تجاربها. وكثيرا ما كن يجبرن اولادهن على العمل ليساعدوهن على كسب رزقهم الشريف عندما يعلمن ان أزواجهنَّ قد سقطوا في ميدان الشرف دفاعا عن السلطان والوطن، الأمر الذي جعل هؤلاء الأولاد محرومين من

رعاية السلطة أدبياً واجتماعياً وعلمياً، وينشأون نشأة واهنة محرومة من أدنى بدايات الرعاية الانسانية.

انفتاح الآفاق امام المسيحيين:

ومما زاد في ازدهار الوضع العام لدى المسيحيين، انفتاح الآفاق امامهم بسبب عدم التضييق عليهم، فكان منهم من هاجر الى اميركا الشمالية او الجنوبية، ومنهم من هاجر الى افريقيا واستراليا او الى مصر وكندا والفليبين والمكسيك ونيوزيلاند حتى كانت نسبة المهاجرين منهم في مطلع القرن العشرين، الرابع عشر الهجري، قد ناهزت ٢٥٪ من عدد السكان.

ولقد كانوا يكسبون الكثير ثم يعودون بقسم كبير منه على اهليهم في الوطن، وعلى مؤسساتهم الدينية والتربوية والاجتماعية، حتى بلغ ما بعثوا به الى هذه المؤسسات ثمانية عشر مليوناً من الدولارات وما بعثوا به الى الأهل اثنين وعشرين مليوناً. وان مدينة زحلة لم يكن فيها قبل سنة ١٨٨٥ سوى بناية واحدة مبنية من الحجارة

وهي الكنيسة، فاصبحت بعد مرور ربع قرن من الزمن لا يرى فيها بناء واحد من الطين!![١].

وقد كانت الطامة الكبرى دخول السلطنة العثمانية الحرب العالمية الأولى مع الالمان ضد الحلفاء، ثم هزيمتها التي فقدت بها كل مواقعها في بلاد العرب والاسلام، فلقد كان البؤس المخزي والرعب والموت والدمار. يقول المؤرخ فيليب حتي «لا نظن ان ولاية من ولايات السلطنة قاست ما قاساه لبنان!!» وقال: «كان الناس في هذه الفترة يبحثون في الدمن والمزابل لعلهم يعثرون على ما يشغلون به المعد الفارغة... وفي هذه الاثناء انتشرت الامراض والاوبئة بشكل مخيف فكان الذباب ينقل حمى التيفوئيد، وكان القمل يحمل حمى التيفوس، وكانت الجرذان تنقل عدوى الطاعون... وزادت الوفيات من حمى الملاريا... وظل الجراد يحجب نور الشمس اياماً عديدة فلم يبق من الاخضر شيئاً»[٢].

فهل من مزيد على هذه الشهادة لتوضيح الوضع

---

(١) لبنان في التاريخ ٥٧٧.
(٢) لبنان في التاريخ ٥٨٩.

الاجتماعي والتربوي والانساني للمسلمين في هذه الحقبة من الزمن؟

فكيف اذا يمكن ان يكون حال الدعوة الاسلامية اذ ذاك؟

الدَّعوَة في ظِلّ الدَّولَة الإسْلَاميَّة

في مطلع القرن الرابع عشر الهجري

الدولة هي المسؤولة عن رعاية الاسلام:

لقد كان دين الدولة الاسلام. فكانت هي التي تهتم بعقيدته وأنظمته وآدابه. كما كان لها الاشراف الكلي على مسار الدعوة. ولا مجال لجحود ما كان لها من فضل في هذا المجال، وفي توسيع رقعة الاسلام، وبسط سلطانه كما أمر الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد ظل حكامها وذوو الشأن فيها يجلّون تعاليمه، ويلتزمون في الغالب بحدوده حتى انحسار ظلها وزوال حكمها. بيد أن هذا لم يمنع في المراحل الاخيرة منه بروز انحرافات من البعض منهم تركت أسوأ الأثر على الحكم والنظام ومهابة الدولة، وبالتالي على مسار الدعوة الاسلامية وبخاصة في لبنان.

وقد بلغ هذا الواقع أوجه في مطلع القرن الرابع عشر الهجري وربعه الأول تقريباً حيث أصبحت معه عاجزة عن رعاية شعبها، وفي لبنان بالخصوص، في كل الشؤون، وبالذات في الناحية التربوية الدينية... وكانت اهتماماتها بالمؤسسات الدينية العاملة من الافتاء والأوقاف وأجهزتها والأئمة والدعاة مادياً وادبياً في حدود الظاهر. لأن تخلف الكثيرين من المسؤولين فيها عن المستوى اللائق في فهم الاسلام، فضلا عن تشرّبهم بالثقافة الغربية، خفّض من مستوى هذه الرعاية للدعوة، كما أساء الى مستوى الدعاة العلمي الذين تقلص عددهم وتخلفت بهم بالتالي نشاطات الدعوة، وسرت بعض الاوهام والاساطير التي شوهت الكثير من الحقائق الدينية.

مظاهر هذه الرعاية:

لقد كان ثمة حركة دينية لا تنكر في المواسم والمناسبات تجتذب العامة وتحرك قلوبهم وتستنهض هممهم فيندفعون لعمل الخير وفعل الطاعات والإلتزام بحدود الله، ولكنها كانت تتسم بالضعف والعجز ويعتريها الكثير من الخلل والفساد... ومع ذلك كانت تؤتي بعض الثمار... فكثيراً ما كان بعض المتدينين من ذوي الثقافة الحديثة والمتأثرين بها يندفعون بالتعاون مع بعض العلماء فيتصدون للمنكرات والانحرافات والبدع، ويحثون الناس على طلب العلم، كما يحضونهم على تطوير مناهجهم في التفكير والتربية والدعوة الاسلامية، وعلى تغيير بعض الاوضاع الاجتماعية، وأساليب العمل السياسي، عن طريق بعض اللقاءات او بعض ما يستحدثونه من دور للعلم او الرعاية الاجتماعية او الدينية البدائية الهزيلة... ولكن ظل ذلك كله في حدود لا تتناسب وجلال الاسلام وحاجة الناس منه ليخرجوا من الظلمات التي كانوا يعيشون فيها الى نور الحق والعلم وضياء الحياة الصحيحة الكريمة[1].

(١) لقد تألفت في بيروت وغيرها من المدن في الولاية أكثر من جمعية لنشر الدعوة =

أ ـ النشاط التبشيري واغراضه

مقدّمة

ان النهاية المخزية التي انتهى اليها الوضع العام في لبنان، هذا الجزء الصغير من الوطن العربي الكبير، سواء في الناحية الاجتماعية او الدينية او السياسية كانت محزنة جدا بالنسبة الى البعض ومفرحة بالنسبة الى البعض الآخر.

فالدولة الحاكمة دولة اسلامية. وضعفها ضعف للاسلام، فهو يحزن المسلمين ولكنه في الوقت نفسه يفرح اعداءه. ولذلك فقد رأت الدول الاوروبية في هذه

= الاسلامية والتعليم بوجه عام. راجع صحف بيروت القديمة مثل: ثمرات الفنون وغيرها من المصادر التي أشارت الى الجمعيات الاسلامية التي اهتمت بشؤون المسلمين في دينهم وعلومهم.

النهاية فرصة سانحة لتزيد من تدخلها في كل مجال، ولتتسرب الى الاجهزة والمؤسسات ومراكز المجتمع البارزة بمختلف الوسائل والاساليب والصور، كما وجد المخالفون لها في الدين والسياسة من رعيتها ايضا مخرجاً للخلاص واثبات الوجود.

الموجات التبشيرية:

كل هذا وغيره مهد السبيل أمام النشاط التبشيري الحار، الذي أخذ طريقه في أوساط لبنان وسوريا عن طريق بعثات كانت تتدفق زرافات ووحدانا وتخلط ما بين الجهد الديني والسياسي(١).

بعض غلائف هذا النشاط:

وقد لحظ دهاقنة المبشرين النقص التعليمي في الشرق العربي، وبخاصة في سوريا ولبنان. فرأوا أن بمقدورهم امتطاء هذه الظاهرة بفتح المدارس واستغلال حاجة المسلمين اليها؛ فأنشأوا المدارس في بيروت ابتداء من سنة

(١) راجع مقدمة كتاب «التبشير والاستعمار» للدكتورين: مصطفى الخالدي وعمر فروخ، الطبعة الرابعة.

١٨٢٥ اي ما يقارب منتصف القرن الثالث عشر الهجري، ثم في عُبَيْه. ثم أنشئت اليسوعية بعد نصف قرن من ذلك، ومدارس الكبوشيين. وكانت تتنافس في ذلك طوائفهم على اختلافها من اليسوعيين والفرير والكبوشيين والانجيليين والعازاريين والراهبات، حتى كان لهم وفر عظيم من المؤسسات التربوية والرعائية والخيرية والصحية في بيروت وصيدا وصور وحمانا وغيرها. وقد كتب جِسِبْ في كتابه «٥٣ سنة في سورية»: «ان مجموع المدارس التي فتحها الاميركان في سوريا ،ومنها لبنان، حتى سنة ١٩٠٩م كان كما يلي: في ولاية بيروت تسع وخمسون مدرسة، وفي متصرفية جبل لبنان احدى وتسعون». ويقول الاستاذ محمد جميل بيهم في كتابه «لبنان يحمل علم الطليعة»: «نشرت احدى صحف الآستانة في عام ١٨٩٤ خبراً مفاده ان عدد المدارس الاميركية في السلطنة العثمانية بلغ وقتها ثمانمائة واثنتي عشرة مدرسة، تضم ثلاثة واربعين ألفاً وسبعة وثلاثين تلميذاً. عشرون ألفاً منهم من الاناث».

ويقول فيليب حتي: «ان المدارس الفرنسية بلغت في

هذه المنطقة خمسمئة مدرسة ضمت بين جدرانها خمسين الف طالب وطالبة».

ونحن نكتفي بهذا السرد ولا نتطرق لذكر ما أنشأته البعثات الايطالية والروسية والالمانية وغيرها، آملين تصور ضخامة النشاط التبشيري النصراني على اختلاف مذاهبه من خلال مؤسسات التعليم، وبُعد أدواره وعمقها في تحقيق ما كان يتطلع اليه من اهداف. ولقد كتبت مجلة المقتبس الدمشقية تقول: «ليس في سورية مدينة استقام لها امر التعليم كثغر بيروت الذي حمل اليه الفرنج ولا يزالون يحملون، علمهم وأموالهم ليربّوا ناشئة الشرق ويخرجوهم على المنازع الغربية مازجين تلقين المدنية بتلقين النصرانية»[1].

وكما لحظ أولئك الدهاقنة النقص في التعليم، لحظوا ايضاً فقدان مراكز علاج المرضى كالمستشفيات والمستوصفات ومراكز الرعاية الاجتماعية كدُور الايتام والعجزة والمعاقين، فلجأوا الى انشاء العديد منها في

(١) راجع في كل ما سبق كتاب «لبنان في التاريخ» ٥٤٥ - ٥٤٧.

الاديرة أو قربها، وفي مراكز الارساليات؛ فوفد اليها فقراء المسلمين بل وأوساطهم احياناً التماساً للعلاج والخدمة الاجتماعية...

ولم تخلُ بيروت او صيدا او طرابلس او المحافظات من مراكز انشأوها لهذا الغرض ولا تزال، فغسلوا من خلالها أدمغة الناس وبدّلوا نفسياتهم نحوهم، وأحلوا فيهم الثقة محل الشك والريبة، والطمأنينة اليهم محل الحذر والاحتياط.

وجه الاعاقة في هذا:

ان قيام هذا الواقع التبشيري الواسع في ربوع تلك الدولة الاسلامية التي سبق وصف حالها المتردي، في كل المجالات، وبخاصة في مجال التعليم والرعاية الاجتماعية والصحية، بالاضافة الى ظروف الحرب الهائلة التي كان يعشعش فيها الموت والرعب والجوع، يشكل دونما ريب خطراً عظيماً على مسار الدعوة الاسلامية في حال استحواذها على كل عناصر الحركة والانطلاق؟! فكيف حين تفقد الأسباب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

لانطلاقها؟ ألا تجد نفسها عاجزة عن اللحاق بكل امكانيات التبشير المتاحة والتي توجه الى المسلمين في لبنان بشكل خاص؟!.

ب - دُخول الحلفَاء ودَورهم

وجه الاحتلال الفرنسي:

والعجيب انه ما ان انحسرت قوى الامبراطورية العثمانية عن هذه البلاد بعد هزيمتها، وبعد ضعفها المهين الذي انعكس كما عرفنا على الناس والمسلمين بالذات ضعفا وجهلا وضياعا، حتى خلفتها جيوش الحلفاء الفرنسية، وفرضت سلطانها بقوة الحديد والنار مستعينة بجيوش الارساليات وبالمواطنين النصارى، ولعلعت أصوات أجراس الكنائس ايذاناً بانتصار حملة صليبية جديدة. وبخاصة بعد ان وقف القائد الفرنسي غورو أمام قبر صلاح الدين وقال: « صلاح الدين! نحن هنا! هذه حملة صليبية جديدة »(١).

---

(١) مذكرات بيروتي ٤٧.

دورهم الأول:

وما ان استقر بهم المقام حتى جعلوا يوقدون نار الطائفية، كما كان منهم يوم اثاروا فتنتها سنة ١٨٦٠م. وقد رأى غالبية المسلمين في هذا عدواناً على وجودهم، فأعلنوا مقاطعتهم لهم، فازداد الفرنسيون في اندفاعهم في الاعتماد على النصارى في الادارة والجيش والقضاء وكل شيء، ورموهم بدعاوى ما كانوا ليسمعوا بها من قبل، مثل القومية والاشتراكية والفينيقية والماسونية فشغلوهم بها عنهم من ناحية، وعن تراثهم وأصالتهم وعقائدهم من ناحية ثانية. وتبعثرت جهودهم وقواهم في مسارب لم تكن في الحسبان، ضاع فيها صوابهم، فتركهم المستعمر لأنفسهم يتخبطون في تلمس وسائل الخلاص، وخيوط النور والهدى لا يلتفت اليهم ولا يعينهم، الا في حال الرضا والانسلاخ عن مقوماتهم الذاتية، وأصالتهم التاريخية والدينية. تماما كما كانت ولا تزال تفعل في الغالب الارساليات الاجنبية مع من تقبل التعاون معه منهم.

موقف المسلمين:

كل هذا لم يفتّ في عضد الواعين من مفكري المسلمين وقادتهم، بل اعتبروه حافزاً لهم لافتتاح نضال طويل في درب جديد نحو التطور والتقدم والخلاص، من خلال قناعاتهم واصولهم، ينفضون عنهم فيه ثيابهم الخلقة، ويهتكون الحجب السوداء التي أظلتهم بها سحب الجهل؛ فقامت هنا وهناك حركات تحررية، ترمي الى جمع الصف، وشق طريق الاستقلال عن الاجنبي اياً كان. وقد انبروا بالفعل لمناجزته في جولات ثورية مختلفة معبرين بوضوح عما بدأوا يتمتعون به من حسٍ أصيل واعتزاز بالكرامة الذاتية، فأقلقوه كثيراً حتى نشبت الحرب العالمية الثانية، وانتهت سنة ١٩٤٥، اي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري تقريباً، بانحسار ظله العسكري نهائياً.

اثر المنتدب في تعويق مسار الدعوة:

ومع ذلك فقد كان لهذا المنتدب أثره الخطير في مسار الدعوة معيقاً لها ومعطلا دورها. فهو الذي اتخذ قرار

فصل الدين عن الدولة، وجعلها دولة علمانية في الظاهر ومسيحية في الحقيقة والواقع. اذ جعل رئيسها مسيحياً رغم وجود اكثرية اسلامية. ومكن له ولمن يتأثرون به في أجهزة الدولة ليتخذوا لأنفسهم فيهم مواقع نفوذ عملوا من خلالها على صبغ كل ما أمكنهم من ادارتها ومؤسساتها والعاملين عليها بالصبغة المسيحية؛ فرفعوا الصلبان فوق رؤوس المرضى في مستشفيات الدولة، فضلا عن المستشفيات الخاصة المسيحية، وسخروا لها الرهبان والراهبات للادارة والتمريض، وأطلقوا على جهاز الاسعاف اسم الصليب الاحمر. وتركوا العنان للمؤسسات التبشيرية المسيحية في وضع مناهج التعليم وانظمة التربية بما يتفق مع نظرتهم وأغراضهم في معاداة الاسلام وتمييع الشخصية الاسلامية، بل وتفريغها من كل مدلول يعبِّر عنها ويثبت وجودها. واكثروا من المدارس التابعة لهم في الاقضية والمحافظات والقرى الاسلامية، في الوقت الذي كان فيه المسلمون في عجز كلي عن ايجاد المدارس الابتدائية فضلا عن التكميلية والثانوية، ودور الحضانة من ارفع المستويات، فاقبلوا عليها يدفعون بفلذات أكبادهم ليتلقوا العلم وينهلوا من المعرفة، فنشأ بذلك قسم

كبير من أبناء الجيل الحديث المسلمين في رعاية الرهبان ورؤساء الاديرة الذين كانوا يجدون في ذلك فرصة لتنشئتهم على الطباع والاخلاق والافكار بل والمعتقدات المسيحية، مع بذر بعض الشكوك حول العقيدة الاسلامية وسيرة الرسول ﷺ، وتاريخ الاسلام والمسلمين، وكثير من التشريعات والانظمة الاسلامية وآيات القرآن الكريم في نفوسهم.

ثم ان الانتداب الفرنسي جعل لنفسه سلطة الوصاية على كل شيء يتصل بالمسلمين؛ فكانت له الرقابة على الافتاء وادارات الاوقاف وطرق تنميتها، من خلال مجالس احدثها. فلم تكن من خطوة في مجال التنمية او التطوير الديني، حتى ولا خطبة تذاع في مناسبة من المناسبات، ولا مسجد يُبنى او خلية تفتح الا وهو عليها حسيب وفيها مدقق.

نظام الامتيازات الطائفية:

بل وزيادة منه في اضعاف الوجود الاسلامي وتعويق دعوته عن التحرك بشكل إيجابي، إندفع في وضع

التشريعات والتنظيمات والإجراءات الكفيلة بذلك. ولقد أجرى الإحصاء السكاني مرة واحدة ومنعه بعد ذلك. وجعل الكثرة فيه زوراً للطوائف المسيحية. وأبرز ذلك في الوظائف العامة كافة، وفي التمثيل الشعبي؛ فجعل نسبة المسيحيين ستة بمقابل خمسة من الطرف الآخر. وأعطى الطائفة المارونية الحق بأن تكون الطائفة الاولى بين الطوائف اللبنانية، في الحكم والادارة والجيش والقضاء والتعليم والسياسة. الأمر الذي ضايق المسلمين كثيراً، وأساء الى طبيعة وجودهم، والى مفهومهم في المشاركة الوطنية، وساهم الى حدٍ بعيد في افساد فكرهم الديني وممارستهم الدينية. بل انه جرَّب ان يسلخ عن لبنان كل صفة أو ظاهرة تصله بالعالم العربي، ليكون بلداً ذا وضع خاص وطابع خاص هو الطابع المسيحي وهو الى العلمانية أقرب وبالغرب أوصل منه ببلاد العرب...

بداية الخلاص:

وقد ظلَّ هذا الواقع منسحباً على وضع المسلمين عامة في لبنان حتى قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، حيث

انشغلت فرنسا بهمومها الداخلية ومشاكلها وخلافاتها الكثيرة، الى حد اصبحت معه مفتقرة الى أية قوة من أية جهة تكون، وحريصة على الابتعاد عن أية عداوة مع أية فئة تكون...

الغاء الرقابة على الاوقاف والافتاء:

ولذلك لم يعد بامكانها الا انتهاج سياسة التقارب مع المسلمين الذين ادركوا الحكمة منها، فبادروا الى استغلال الظرف، والعمل على انتشال انفسهم، وبخاصة اوقافهم ومؤسساتهم الدينية والتربوية، واستنقاذها من هيمنة المنتدب الفرنسي. ولقد وفقوا الى ذلك على يد سماحة مفتي الجمهورية الاسبق الشيخ محمد توفيق خالد رحمه الله، الذي ألغى أولا رقابة الدولة على الأوقاف ومجالسها، كما ألغى تسلطها على الافتاء وأجهزته. ومنحها الاستقلال التام. ثم نشط في تطويرها ادارة وأنظمة وأجهزة كما اجتهد في العمل على انمائها. وسنرى ذلك واضحاً عندما سنتكلم عن مسار الدعوة التنظيمي والقانوني...

ومما تقدم يمكن القول بان المنتدب في ضغوطه المتنوعة وتضييقه على العمل الاسلامي في ميادينه المختلفة، قد نجح الى حدٍ بعيد، ولكنه لم يتمكن من بلوغ غايته القصوى، بعد ان انبعثت حمية المسلمين الدينية في نفوسهم، ودفعت بهم الى معاندة الباطل والتمرد عليه، ومعاكسة أهدافه في كل سبيل...

التَّصَدِّي الإسْلامي لمعوّقات الدّعوة الإسْلاميّة

في مطلع القرن الرابع عشر الهجري

تذكير بمعوقات الدعوة:

ظهر لنا جلياً من قبل، ان معوقات الدعوة الاسلامية كانت اولا في عجز الدولة الاسلامية عن النهوض بأعبائها الدينية والتربوية والرعائية في حقل الخدمات الصحية والاجتماعية، ثم استغلال اجهزة التبشير والاستعمار ذلك. ووفودهم على البلاد في غفلة من الدولة تارة وبعلمها تارة اخرى، وممارستهم جهوداً متنوعة في سبيل تحقيق أهداف معادية للاسلام والمسلمين، واخيراً دعم قوى الانتداب لهم بمختلف الوسائل...

ردود فعل المسلمين:

بيد ان ذلك لم يكن ليخفى على ذوي البصيرة والفكر والمكانة الاجتماعية من المسلمين. بل لم يكن ليستمر دون

ان تظهر فيهم ردود فعل تعبر عن الاستياء، وتحاول القيام بعمل إيجابي ما، ينقذ المسلمين من السقوط نهائياً في شباك أولئك. وما اتحاد الهمم «الشبانية»[١] في بيروت التي عبرت عنه رسالة الفجر الصادق الذي انبثق عنه تأليف جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية الا بادرة صادقة مفصحة عن الشعور الاسيف لذلك الواقع ومتحركة في اتجاه التحدي والصمود استمساكاً بالأصول.

وقد كانت صبوة أولئك الشباب ان يتمكنوا من انشاء بعض المدارس الابتدائية والثانوية التي تكفل لناشئتنا الاسلامية التعليم الذي حرموا منه، والذي يسهل لهم الاطلاع بوعي على خطوات النهضة الحديثة.

وما كاد ينصرم النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري اي النصف الاول تقريباً من القرن العشرين، حتى كان مؤسسو جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية قد أنشأوا قريبا من خمس مدارس ابتدائية للذكور وثلاث للبنات وثلاث مدارس تكميلية للذكور وثلاث للبنات

(١) رسالة الفجر الصادق طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٧ هـ صفحة ٦.

وثلاث ثانويات للذكور وثانوية للبنات، تضم في مجموعها ما يقارب عشرة آلاف طالب وطالبة، يضاف اليها ما يزيد عن تسعين مدرسة ابتدائية موزعة على قرى الاقضية والمحافظات.

وقد ائتم بهؤلاء نفر طيبون من سكان طرابلس وصيدا فأسسوا بعض الجمعيات التي انطلقت في هذا السبيل فأنشأت أيضاً بعض المؤسسات التربوية فكانت المدارس الابتدائية والتكميلية والثانوية ثمة، وان كانت في عددها وعدد طلابها اقل بكثير من التي احدثت في بيروت...

هذا ولا يسعنا ان نغفل ما أنشأه بعض الافراد منها، بدافع الغيرة والحماس الوطني والديني، او الرغبة بالاكتساب المادي، مما كان له أيضاً اسهام كبير في تعزيز ظاهرة التعليم في صفوف المسلمين.

على انه في الوقت الذي قامت فيه تلك المؤسسات التربوية على أيدي بعض الجمعيات او الافراد في مختلف المناطق، كان يتحرك بعض ذوي المروءة والنجدة

والفضل، لإنشاء بعض دُور الرعاية لحضانة اليتامى ومعالجة المرضى والعجزة والعناية بالمشردين والفقراء، فكانت مؤسسة الايتام في بيروت ثم في طرابلس وصيدا واحتضنت ما يربو على ألفين من أيتام المسلمين في لبنان على مر السنين، الذين كان مفروضا اما ان يضلوا السبيل وهم في حجور امهاتهم، أو أن يرتموا في أحضان مدارس التبشير التي أصبحت منتشرة في كل مكان... وكانت ايضاً دور اللقطاء، والمستوصفات والمستشفيات ودور العجزة والمشردين في بيروت وطرابلس وصيدا والمناطق كافة. وبدأ المسلمون بفضل الله ثم بفضل العاملين في سلوك درب الخلاص من مغريات مؤسسات التبشير...

جهود الدعاة وفضلهم:

ومما لا ريب فيه ان ذلك كله يعود فضله الى أولئك العلماء الاجلاء الذين وجدوا اذ ذاك فلعبوا دورا جيدا في توعية الجماهير المسلمة اسلامياً ووطنياً. وهل يستطيع احد نسيان جهود اولئك العلماء الاماجد امثال: الشيخ محمد الحوت والشيخ عبدالله خالد والشيخ عبدالرحمن

الحوت والشيخ مصطفى نجا والشيخ يوسف الاسير والشيخ عبدالباسط الفاخوري والشيخ محمد البربير والشيخ محمود فرشوخ والسيد محمد رشيد رضا والشيخ حسين الجسر والشيخ عبداللطيف الرافعي والشيخ عبدالكريم عويضة والشيخ احمد عباس والشيخ عارف الزين والشيخ أحمد رضا وغيرهم كثير من الذين كان لهم من الذكر أطيبه ومن الجهد في الدعوة أجمله وأخلده، حتى تمكنوا من ترك ذلك الفضل العظيم... وهؤلاء وأمثالهم لم يتركوا في غالبهم آثاراً علمية تذكر لهم، ولكنهم تركوا اجيالا مترامية من الناس، يحملون لهم في قلوبهم وأفكارهم، صفحات مطوية من الذكر الحسن والاثر الحميد، بالاضافة الى ما يحملونه عنهم من انطباعات فكرية وخلقية وسلوكية مجيدة...

لقد كانوا رغم انشغال الدولة العثمانية وعجزها، ثم رغم قوة اجهزة التبشير، وقوة الدولة المنتدبة فيما بعد، يحركون الرأي العام الاسلامي ليقف في وجه التيارات والمظاهر المخالفة للاسلام، ويرفض التعاون مع أجهزتها والواقفين وراءها ثم لينشىء البدائل من المدارس والمستوصفات ودور الرعاية والخدمة الاجتماعية على

اختلاف صورها.

انهم هم الذين كانوا يستنهضون همم الناس ويثيرون فيهم غيرتهم، ويحملونهم على بذل الكثير والقليل لانشاء الحبوس على المساجد وتلك المؤسسات على اختلافها للانفاق على القيمين عليها او على الدعاة والائمة وغيرهم لمتابعة جهدهم ونشاطهم. وليستمر خطو مسار الدعوة معافى في رحلته الطويلة فعالاً وايجابياً في مهمته.

لقد كان العدو شرساً وقاسياً. وكان أيضاً ذكياً وماهراً. وكان يرغب بتوجيه الكيان الاجتماعي والسياسي في لبنان كله كما عرف من قبل في مسار علماني فأبى هؤلاء. وثبتوا لما يبيّت لهم. وناضلوا دون فكرهم الاسلامي وعقيدتهم ووجودهم. وكانت منابرهم ومواعظهم وحلقات التدريس والندوات الخاصة والعامة التي كانوا يعقدونها، وكذلك كلماتهم المنسابة من دفء اخلاصهم لله ثم للأمة والحق والمشحونة بمحبتهم الصافية للجميع، هي التي أنبتت اجيالا مناضلة، من كل اختصاص؛ من السياسيين والعلماء والأطباء والمهندسين والمربين والصحفيين والأدباء والمفكرين. وأوجدت هذا المجتمع الاسلامي المرابط اليوم في ثغر لبنان...

مَسَار الدَّعوة الإسلاميّة

في العهد الاستقلالي

أ- مسار الدّعوة السّياسي

وفي حوالي الربع الاول من القرن العشرين، والنصف الاول من القرن الرابع عشر الهجري، كان المنتدب الفرنسي قد حل محل السلطة العثمانية المسلمة، واستقر فيها بعد ان اخمد الثورة السورية. وتجاه التغيير الجذري الذي عمد الى تطبيقه في كل شيء، في أصول الحكم ومظاهره وأساليبه ومناهجه، لقي الكثير من المعارضة العنيفة في المسلمين.

لقد أعلن المسلمون موقفاً واحداً، هو موقف عدم التعاون مع المنتدب الفرنسي الذي أخلف بتحقيق وعده الذي قطعه لهم مع الانجليز، بتحرير هذه البلاد، ومنحها استقلالها التام. ولما لجأ للقوة، اضطروا للرضوخ على مضض، ولجأوا الى العمل الصامت الحكيم، بعد ان قتل بعضهم ونفي البعض الآخر.

ولئن كان المسلمون قد تحملوا مسؤولياتهم التربوية

والدينية والاجتماعية في الظروف التي سبقت ولحقت، فقد تحملوا أيضاً واجباتهم السياسية، بشرف وأمانة، وصمدوا للمنتدب وأغراضه، وجابهوه طلباً للاستقلال، ومن أجل فلسطين، التي كان المنتدب الانجليزي فيها يمهد لها لتصبح وطناً اسرائيلياً، ومن أجل المحافظة على معالم حياتهم وأعرافهم وأنظمتهم الشخصية، ومن أجل المحافظة على قضاياهم المصيرية...

ولقد كان في مقدمة زعماء البلاد وقادتها مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد توفيق خالد ومن قبله مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا ومن حولهما العلماء والدعاة الذين نشطوا في هذا السبيل، وانبروا يلهبون مشاعر الناس ويوقظون مفاهيمهم الدينية في العزة والكرامة والحرية. وكانت اللقاءات الاسلامية الكبرى تعقد في بيت مفتي الجمهورية أو مركزه بصفته المرجع الديني للمسلمين، لاتخاذ القرارات والمواقف الهادفة الى صيانة الوجود الإسلامي، شكلا وموضوعا. كما كان الممثل الفرنسي يسعى اليه محاورا لديه الزعماء السياسيين، وقادة البلاد، فيما يقرب وجهات النظر ويحسم القلاقل والاضطرابات...

وبفضل تعاون القيادات السياسية والاسلامية إذ ذاك والتفافها حول مفتي الجمهورية، وبفضل إخلاص العلماء والدعاة وتعاونهم الوثيق معه ايضاً، وتوعيتهم الناس، ذُلِّلت صعاب كثيرة ونجت البلاد من كابوس الاستعمار المهيب، وانحسر ظله العسكري الى الابد ان شاء الله...

ولا غرو فإن العمل السياسي، إن كان صادقاً مخلصاً وهادفاً الى مصلحة العباد، جزء من العمل الديني الاصيل، وهو ظاهرة تعبدية تماما ككل عبادة او عمل صالح يقوم به المرء في خدمة الحق والخير والانسانية المعذبة متقرباً به الى الله. وما الدين في الحقيقة إلا إلتزام من العبد بإحسان علاقته بالله، ثم بإحسان علاقته مع أخيه الانسان فردا وجماعة ليعيش عزيزاً حراً كريماً. فاذا وفر لهذا الجانب جزءاً من جهده وعطائه محتسباً ذلك عند ربه فهو متعبد مأجور...

هذا وان للسياسة اليوم أثرها البعيد في الدعوة، وتمكين مسارها من النجاح، أو كبته والتضييق عليه، خصوصاً وأن بيدها في هذا العصر مقاليد الحكم، فلا بد

من الضرب فيها بسهم وافر لتبقى للدعوة مهابتها ويتعمق وجودها، ويتسع انتشارها، ويتحقق بالتالي عزّة المجتمع المسلم حالياً ومستقبلا...

ومن هنا كان ولا يزال مركز الدعوة الاسلامية في لبنان أعني به افتاء الجمهورية، يتصدى بقدر المستطاع لتحمل مسؤوليته في المواقف الحاسمة، رافعاً صوت الإسلام ومحدداً موقفه من المتغيرات على الساحة اللبنانية بل وغيرها، وبخاصة فيما يتعلق بالصراع الناشب حالياً في لبنان.

ب - مسار الدّعوة القانوني

لقد كانت الفترة التي شغل فيها مفتي الجمهورية الشيخ توفيق خالد منصبه فترة فيّضة الخير عميمة الفائدة إذ استطاع خلال زمن الانتداب وبعده من ان يقوم بعدة خطوات تحررية وبنّاءة على صعيد العمل الديني والوقفي والقضائي...

تحرير الأوقاف والافتاء:

فقد استعاد اولا السلطة كاملة على الافتاء وعلى

أوقاف المسلمين في جميع لبنان بعد ان كانت خاضعة لرقابة الاجنبي، وأخضعها لسلطته من خلال مجالس إدارية محلية، يشرف عليها كلها المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى، الذي ما زال حتى اليوم أعلى سلطة للإسلام في لبنان يتمثل برئاسة الحكومة التي يتولاها مسلم سني. وجعل الأوقاف الاسلامية في كل محافظة خاضعة لميزانية موحدة، بعد ان كانت تابعة الى سلطة المتولين حسب شروط الواقفين. وألغى شروط الواقفين التي تقصر الانفاق من مواردها على بعض المساجد دون البعض في بيروت او طرابلس او صيدا. وجعل من حق المجالس المحلية توزيع مواردها على الخطباء والوعاظ والأئمة والمؤذنين وخدم المساجد عامة وذلك ليتيسر له العمل الديني الواسع وليتمكن مع الزمن من تحقيق الانصاف والعدل الماديين لدى توجيه المهام الدينية بين جميع الأئمة والخطباء بحيث يحصر التمييز بينهم فقط بالعلم والجهد الصالح.

ثم بتاريخ ١٩٤٧ اي في مطلع الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري استصدر مفتي الجمهورية من المجلس

النيابي قانوناً حتم بموجبه إنهاء الأوقاف الذرية ضمن حدود، بعد ان آل اكثرها للخراب وأصبحت حصص الوارثين فيها لا تذكر، بل أصبحت عبئاً مكلفاً بدل ان تكون مورداً نافعا. وكان من ثمرة ذلك تحريك الأوقاف وتطوير ما يصلح منها لذلك بحيث يؤول اكثر عطاء وأوفر قدرة على الاستمرار...

تنظيم المحاكم الشرعية:

وتوصل مفتي الجمهورية آنذاك أيضاً الى تثبيت المحاكم الشرعية التي تزعزعت مكانتها بعد هزيمة دولة الخلافة وانحسار ظلها عن البلاد، واقتطاع صلاحياتها واحدة بعد أخرى وتوزيعها على المحاكم المدنية، فثبّتها وثبّت اختصاصاتها المتعلقة بأحوال الأسرة المستمدة أنظمتها وتشريعاتها من القرآن والسنة والمذاهب الفقهية، ووضع لها مرسوماً اشتراعياً يضبط مسار العمل فيها ويحدد صلاحياتها وأصول المحاكمات لديها وأصول التعيين فيها والتأذيب والصرف منها، وجعلها خاضعة لمجلس قضاء شرعي أعلى منفصل عن مجلس القضاء الأعلى

المدني، وأناط رئاسته بمفتي الجمهورية ليتحقق من خلاله الاشراف على أعمالها وسير حكامها وموظفيها بحيث تبقى معها أعراض المسلمين وحقوقهم العائلية مضمونة من التلاعب بها...

انشاء أزهر لبنان:

وقد وفقه الله تعالى الى إنشاء المعهد الديني الثانوي الذي اطلق عليه يومذاك إسم «الكلية الشرعية ذكرى الشيخين خالد والحوت» والذي أصبح اسمه اليوم «أزهر لبنان» وجعل مركزه بيروت، وحبس عليه بعض الأوقاف التي تخوله الاستمرار دون مساعدة احد، واجتذب اليه العديد من ابناء خيار العائلات الإسلامية في لبنان فساهم باداء نصيبه الكبير في تشجيع الناشئة على التفقه بالدين والعناية بالثقافة الاسلامية، ثم شجع أوائل المتخرجين منه، فأرسلهم بعثات الى جامعات الازهر الشريف، ثم بعد تخرّجهم عهد اليهم بأعلى المناصب الدينية، في القضاء الشرعي والافتاء والتدريس...

تنظيمات اخرى:

ولم يكد يمضي على وفاة الشيخ توفيق خالد رحمه الله سنوات قليلة، حتى تحرك خلفه الطيب الذكر سماحة الشيخ محمد علايا مفتي الجمهورية السابق عام ١٩٥٥ ووضع بالتعاون مع كبار المشرعين المسلمين وموافقة الحكومة. المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ الذي نظَّم وضع المسلمين السنة، ورسم حدود وصلاحيات مفتي الجمهورية، كما حدد أساليب العمل في ادارات الأوقاف، وكيفية اختيار وتعيين الدعاة والأئمة والموظفين، وكيفية محاسبتهم وتأديبهم ونقلهم وصرفهم، وطرق صرف أموال الأوقاف ومراقبتها، بحيث تبقى دوماً مطّردة النماء مصونة من امتداد ايدي ذوي الغايات والمصالح، وتظل موجهة للجهة المشروعة التي حبست لها...

ولقد خوّل هذا المرسوم الاشتراعي المذكور المسلمين السنة إدارة أمورهم الدينية والاجتماعية، والتصرف بالتشريع في شؤونهم الاسلامية، بما لا يتعارض مع الانتظام العام، عن طريق المجلس الشرعي الاسلامي

الاعلى المذكور، الذي يرأسه مرجع المسلمين الديني وهو مفتي الجمهورية اللبنانية. وقد تمكنوا بفضل المجلس الشرعي، وبفضل المخلصين منهم، من حزم أمرهم الديني وصون أموالهم ومؤسساتهم وممتلكاتهم الوقفية، ثم الاجتهاد الى حدٍ ما بالإبقاء على إنضباط سير الدعوة الاسلامية في سبيلها السليم محافظة، على سمتها المشرق، وحريصة على بعث معنويات المسلمين ودفع ناشئتهم في مواكب الهدى والنور، وفي طريق الحياة الحديثة المتطورة المتفاعلة بعمق واخلاص مع الاسلام...

ثم أعيد النظر في هذا المرسوم خلال سنة ١٩٦٧ اي في مطلع الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، وأجريت عليه تعديلات حاسمة جعلته اكثر تلبية لحاجات المسلمين التي تطورت الى حد بعيد، كما وضعت بعد ذلك تنظيمات حديثة منها نظام الجهاز الديني الذي نظم وضع الدعاة وأبان حقوقهم المالية والادبية وواجباتهم واسلوب التعامل معهم، ونظام اللجان الوقفية في القرى التي تشرف على أوقافها ومساجدها والأئمة فيها، ونظام لجان المساجد التي تعاون الادارات الوقفية

في المحافظة عليها وعلى مظاهرها لتبقى دوما صالحة لاقامة الشعائر فيها، ثم نظام تقديم المنح الى طلاب العلم الديني، والنظام الداخلي للمجلس الشرعي الاسلامي الاعلى، ونظام الصندوق المستقل الذي يرعى زكاة المال والتبرعات، ويشجع على ادائها ويبين كيفية جبايتها والاستفادة منها في خدمة المصالح الاسلامية العامة، في الحدود المشروعة، ثم عدّل نظام الجهاز الاداري لإدارة الاوقاف، ووضع نظام أصول التبليغ وطرق المراجعة كما وضع النظام المالي وأصول المحاسبة في الادارات الوقفية، وغير ذلك من الانظمة التي تساعد على ضبط مسار الدعوة وتنشيطها وتعزيز التعاليم الدينية في النفوس.

تنمية الموارد الوقفية والطاقات العلمية

ولما كانت مجالس الاوقاف المحلية وعلى رأسها المجلس الشرعي الاعلى تؤمن بأن النشاطات الدينية التوجيهية تأتي، بنسبة الكفاءة العلمية والشخصية لدى القائمين بها،

وبنسبة ما يصرف لهم من مكافآت وبدلات، فقد اتجهت هممها المخلصة لتنمية الموارد الوقفية وتحسين أوضاعها العامة، بحيث تصبح قادرة على تلبية حاجات الدعوة في مختلف ميادينها، ثم تحسين وضع المعهد الديني «أزهر لبنان» والدراسة فيه، وتشجيع طلبة العلم على المزيد من التوفر على التحصيل وطلب العلم ليعودوا الى وطنهم وهم في المستوى اللائق والكفاءة الممتازة.

مسار الدعوة الفكري ومجلة الفكر الاسلامي:

وقد لوحظ منذ زمن بعيد، وعقب اختصار الأبعاد بوسائل النقل الحديثة وأجهزة الاعلام المختلفة، من الراديو والتليفزيون والتليفون والصحافة والطباعة والنشر، ووجود مختلف الجامعات الاجنبية في بلادنا، وانتساب أبنائنا اليها، أو انتسابهم الى مثيلاتها في بلاد الاغتراب، يُسر تسرب الفكر الغربي الحديث وعلومه وفنونه، بما فيها من حق وباطل وخير وشر، وبما تحويه من تلاق مع الفكر الاسلامي او مجافاة له وحقد عليه؛ الى

مكتباتنا الإسلامية الشخصية والعامة والى أفكارنا الذاتية، وفيها الكثير من الزيف الفكري والانحراف الوجداني، مما لا يأتلف مع الحق والهدى اللذين جاء بهما الاسلام. خصوصاً وأنها كثيرا ما تعرض بأسلوب مغر وظروف مؤثرة، ضـاغطـة تستهوي صغـار المفكرين ومحدودي الذهن منهم، وهي تحمل بذور الشكوك والغمز والطعن بالاسلام، فكان لا بد من أن تكون للمسلمين في لبنان مجلة مسؤولة تبرز على الساحة، وتتصدى لكل ذلك وتكشف زيغه وباطله، وترده بالبيّنات رداً لا يبقى له في أولئك من محبذ أو مؤيد، فأنشأت دار الافتاء مجلة «الفكر الاسلامي»[1] ورصدت لها من المال والجهود ما يساعدها على الانطلاق في ذلك الدرب الشاق الطويل.

وانها اليوم رغم ضآلة ما بين يديها من القدرات، تبذل جهداً مشكوراً في عرض فكر الإسلام بصفائه الذي هو عليه، بريئاً مما يدسه فيه بعض المغرضين أو العملاء او المغفلين، مُعليةَ صوته بروح سمحة واعية،

---

(١) مصدر العدد الأول منها في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠.

مدعمةً حقه، وموضحة بطلان ما يروجه عنه المبطلون والمنافقون.

بـل إن دار الإفتـاء قـد مشت في ذلـك السبيـل خطوات، فأنشأت معرض الكتاب الإسلامي وعرضت فيه خير ما ظهر في لبنان والعالم العربي والإسلامي في الآونة الاخيرة من كتب حديثة أو تراثية تعالج فكر الإسلام ونظراتـه التشريعيـة والأدبيـة وتسهم في فضح الافتراءات الظالمة عليه التي أطلقها أعداؤه وأعداء الحق، أو تقارن بين ما لديه وبين ما أصدره الفكر الغربي او الشرقي الحديث، وتضع كل ذلك بين يدي مفكرينا المحدثين ليفتحوا أعينهم على النور ويغرفوا معرفتهم من مناهل الهدى والحق لا مناهل الزيغ والباطل...

ج- مسار الدعوة الديني

تشجيع العلم وكثرة العلماء:

وهكذا انطلق العمل الاسلامي وسارت الدعوة مساراً حسناً. فطوَّر أزهر لبنان صورة وحقيقة، وكثر الراغبون

في الانتساب اليه من طلبة العلم، وارتفعت أعدادهم بالنسبة للمرحلة الأولى من بداية العهد الاستقلالي. وعلت نسبة المتخصصين منهم بالدراسات العليا في الماجيستير والدكتوراه، ونشطت حركتهم في كل مكان دعوة وتعليماً وإرشاداً، وتحسنت أحوالهم المعاشية ومكانتهم الاجتماعية نسبياً، بالمقارنة مع العهود الأولى، وأصبح الكثيرون منهم في مكان القيادة المرموقة في المجتمع يزينون بوجودهم وعلمهم وأدبهم مجالس الناس وحياتهم.

زيادة الوعي الديني في الناس:

ولقد كان من آثار هذا التطور في النشاط الديني عمق الوعي الديني لدى الناس وانتشار تفاعلهم معه. كما كثر تصدي الكبار منهم لتحمل مسؤولياتهم في المجتمع لمؤازرة العمل الديني الرسميين وتعزيز مرافقه من بناء المساجد والخلايا الاجتماعية والمراكز التعليمية والتربوية العاملة في خدمة الضعفاء، والفقراء واليتامى والمتخلفين. وأصبحت المناسبات التاريخية الإسلامية فرصة عظيمة لتنافس العلماء والمفكرين والمربين والقادة

على الاحتفاء بها، واستعراض مجالات البطولة والابداع فيها، واستغلالها لاستنهاض همم الناشئة، وتوجيه فكرهم وأنفسهم نحو ما فيها من معالي الامور وعظائم المواقف...

وبتعمق الوعي الإسلامي بنسبة انتشار العلم والعلماء، بدأت تختفي من المجتمع، الأساطير والخرافات وبعض المظاهر المنسوبة الى الدين؛ كمجامع الذكر غير المتزنة والمزوّدة بالطبول والزمور والدفوف، وحلبات الرقص والراقصين، وغير ذلك مما ابتدعه الناس قديماً ودس على الدين وما هو من الدين في شيء...

تعدد حلقات التدريس:

بل انه قد حل محل هذا، حلقات التدريس في المساجد يتصدرها في الغالب علماء أكفاء يتلون فيها كتاب الله ويتدارسونه بينهم، ويفقهون الناس بالدين؛ فيعرِّفونهم بالحدود، ويوضحون لهم ما أحلَّ الله وما حرَّم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، بل ويرفعون صوتهم الصافي بكلمة الحق والخير في كل نادٍ،

ويكون لرضاهم وسخطهم أثره في النفوس. وقد ظلت مكانة هؤلاء، رغم كل ما يظهر منهم على الساحة من أخطاء وانحرافات شجعت عليها المصالح السياسية او المصالح المادية الآنيَّة، مطردة النماء والتقدم حسنة السمت رفيعة المقام...

د ـ مسار الدّعوة الاجتماعي

تطوير اجهزة الافتاء ومهامه:

وبعد سنة ١٩٦٧م توسع جهاز الافتاء الاداري، واتجه بالاضافة الى مهامه الكبرى، الى المساهمات الاجتماعية التي تحتمها ظروف المسلمين الخاصة في لبنان.

فالحكومة شبه علمانية، ورئيسها مسيحي ماروني، وأجهزتها والمشرفون عليها مزيج من المسلمين والمسيحيين بل وذوي النزعات الفكرية الحديثة المتطرِّفة لا يتيسر فيهم وجود مرجع يَهْتَمّ بمصالح المسلمين أفراداً وجماعات. فكان لا بد من أن يتحمل هذه المسؤولية قدر الإمكان مفتي الجمهورية اللبنانية.

بذل المساعدات:

ومن هنا التفتت دار الافتاء مُلجأة، الى حاجات الناس ومصالحهم الاجتماعية، أفراداً كانوا أو جماعة، بصفتها وصية عامة على مصالح المسلمين، فأَخذت على عاتقها تلبية الكثير من الحاجات الاجتماعية التي لا يسع ادارات الاوقاف ولا زعماء البلاد السياسيين القيام بها. فقدمت ولا تزال المساعدات ضمن حدود الامكان الى الفقراء من طلبة العلم على كل المستويات والمرضى والعاجزين والمتخلفين والعاطلين عن العمل والمتضررين والمظلومين في ادارات الدولة والمؤسسات العامة والخاصة.

فض الخلافات وازالة المنكرات العامة:

هذا وقد تحملت عبء فض بعض الخلافات العائلية والشخصية على أي مستوى، ايماناً منها بأن اهمال ذلك قد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه، ويكون في غير صالح المسلمين إجتماعيا وأدبياً. وتصدت الى الاعتراض على كثير من المظاهر والاعمال التي قد تأتيها بعض المصالح في الدولة وغيرها، وتكون متنافرة مع المصلحة الدينية الاسلامية، وتمكنت من ازالتها او الغائها. كما واجهت العديد من المنكرات العامة المتنافرة مع آداب الاسلام وعقائده

وتاريخه وأنظمته سواء كانت في الحفلات العامة او في الافلام السينمائية او في الكتب والصحف والمطبوعات والمنشورات وبخاصة طباعة المصحف الكريم حتى وفي بعض القوانين والتشريعات ووفقت الى ابطالها واخفائها.

المساهمة في مساعدة الجمعيات والهيئات:

ثم مدت عونها الى كل نشاط او جهد اجتماعي رصد في مصلحة الفرد المسلم والجماعة المسلمة فشجعته، كما شجعت الجمعيات والمؤسسات والهيئات العاملة في الحقول الاجتماعية المختلفة النافعة، فأمدتها كلها بكل ما تملك من عون أدبي ومادي في حدود الامكانات المتوفرة، واندفعت في تذليل كل ما ينتهض في وجهها من عقبات وصعاب.

سعي الناس الى دار الافتاء طلباً للمعونة:

وقد كان لهذا النشاط الواسع فضله وخطره عند

الناس، فسعوا اليها على اختلاف مكاناتهم ومراكزهم وأعمالهم، من داخل الدولة وخارجها من كبار الموظفين وصغارهم، وكبار التجار وعادييهم من كل ابناء المسلمين بل واحياناً من غير المسلمين يستنجدون بالافتاء ليزيل عنهم الحيف او ليحقق لهم مصلحة...

توثيق العلاقات مع العالم العربي:

بل واتّسعت نشاطات دار الافتاء حتى شملت العالم العربي كله، فعقدت الصلات والعلاقات مع جميع المسؤولين فيها، وساهمت في التعاون معهم فيما يضمن تحقيق مصلحة الإسلام والمسلمين في كل مكان. وشاركت في اللقاءات والمؤتمرات الكبرى وأعلت صوت المسلمين اللبنانيين فيها.

هـ - الجهد الوقفي في مسار الدّعوة

يظل العمل الديني محدوداً، وقد يكون ضئيلاً، ما لم تتيسر له قدرات مالية ترفده وتنمي مساعيه. وقد كانت الدعوة الإسلامية في عهد الرسول الأعظم صلوات الله

وسلامه عليه، على فضلها وصفائها وحرارتها الدينية وقوتها، في حاجة الى المال. وكان ﷺ يحض أصحابه في كثير من المناسبات لبذل ما لديهم من المال، سواء كان للقتال أو كان لمساعدة الفقراء والضعفاء، أو كان لتعزيز بعض المرافق العامة. ولذلك كان لا بد في لبنان، وظروفه حسبما وصفنا سابقاً، من تحريك عجلة التنمية في المجال الوقفي عصب الدعوة الإسلامية، لتحسين أوضاع الأوقاف المادية، بحيث تصبح قادرة على توفير المال اللازم لتلبية حاجات القدرات البشرية، صاحبة الفكر والعلم، التي تمثل ركائز الدعوة ومفاتيح الخير فيها، ولسانها ووجهها وفكرها، والتي بيدها توجيه النفوس والتأثير فيها ودفعها في سبيل العزة والحق والكرامة... ولذلك فقد نشطت دار الإفتاء ومن ورائها مجالس الأوقاف واندفعت في خطين متوازيين: عملت في الأول على تطوير عقارات الأوقاف الموجودة لديها وتحسينها وتنمية مواردها، بهدم القديم المتهاتر وإعادة بنائه واستغلاله على أحسن الوجوه في ضوء القوانين والأنظمة الحديثة، أو تطوير ما هو قائم الى الأفضل، أو شراء عقارات جديدة

بما توفر لديها من احتياط، واتجهت في الثاني الى استنهاض همم الاثرياء من المسلمين في الداخل والخارج، للإستحصال على بعض القروض أو المساعدات علها تتمكن من توفير المال اللازم.

وقد وُفقت بفضل الله وعونه في نشاطها هذا الى حد ما، وانفتحت أمامها مجالات جديدة وآفاق خيرة كانت كفيلة بأن تمكن للدعوة بأن تستوي على سوقها وتنطلق بنجاح، لولا النكبة الاخيرة التي نزلت بلبنان وأصاب المسلمين في أوقافهم منها الضرر الكبير، الذي ذهب بأربعة اخماسها وترك الباقي مجمداً او قليل العطاء...

و- أنشطة أخرى في مسار الدّعوة

قيام التعاون بين المسلمين:

يزين الاسلام لأتباعه التعاون على البر والتقوى، ويرغب إليهم التكافل المادي والاجتماعي فيما بينهم. وما أكثر آيات الكتاب وأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، التي تتسع لهذه المعاني، ويقع المسلم فيها

على ما يرى فيه واجباً محتماً عليه تجاه جاره أو قريبه أو أخيه في الإسلام بل والإنسانية، يسوّل نجدته لدى كل حاجة أو عند كل ضيق أو مصيبة.

واذا كانت ظاهرة التعاون او التكافل، مطلوبة من المسلم في الدولة المسلمة، فكيف بها في المجتمع الذي تظلله دولة شبه علمانية او نصرانية ولا تتعاطف مع الإسلام إلا بقدر مقدور وحدود معلومة؟ من هنا كان اهتمام الناس في هذا المجال، ـ كما رأينا ـ واسعاً. وكان يفرض فيه التبعثر والتعدد وضعف الانضباط، وان يظهر فيه من حين لآخر، للسياسة دور فعال يزيد من هذا الواقع.

الجمعيات والهيئات والمؤسسات الاسلامية:

ومنذ اطلالة العهد الاستقلالي، بل وقبله، قامت كيانات وانفردت بنشاطات دينية واجتماعية إسلامية لا تخضع للسلطة الدينية العليا. منها الذي عني بالتعليم فبنى المدارس على اختلاف مراتبها. ومنها الذي عني بالرعاية الاجتماعية فأنشأ دور اليتيم واللقيط والعجزة والمعاقين والمشلولين، والمهن، ومنها من اعتنى بالصحة،

فبنى المستوصفات والمستشفيات أو مراكز العناية بالطفل، ومنها من اهتمّ بالمساجد والخلايا فتفرغ لبنائها، أو بالخدمات العامة من مساعدة الأسر الفقيرة والمتخلفة وغير ذلك.

وقد عظم أمر هذه المؤسسات واتسع نشاط بعضها وعم فضلها وبوركت جهودها فانتفع بها الناس وأصبحت مهامها ركائز أساسية في معاش الكثيرين من الناس.

الحركات الدينية الحزبية والسياسية:

وقد برزت بالاضافة الى ذلك خلال فترات متتابعة بتشجيع من جهات إسلامية خارجية أو باندفاع ذاتي حركات دينية حزبية أو تجمعات هي في طريق التحزب، كحركة **إخوان المسلمين والشبان المسلمين وحزب التحرير، وجماعة عباد الرحمن والجماعة الإسلامية، وغيرها**. بعضها أصاب نجاحاً جزئياً وبعضها لم يصب اي نجاح وعجز عن أن يركز كيانه حتى الآن. ولعل ذلك يعود لأسباب أهمها، عدم توفر القادة من اهل العلم والتقى والبراعة السياسية، الذين أوتوا نصيباً موفوراً

من سعة الافق ومرونة الفكر واستيعاب الذهن ليتمكنوا من التوفيق في مواقفهم وقراراتهم بين النظرة الدينية وحكمها، والنظرة السياسية الاجتماعية الجديدة.

ومهما يكن، فقد كانت كلها ولا تزال على اختلاف ما بينها، من اعتدال النظرة والخطة الدينية أو تطرفها، وصدقها وبراءتها من اية خلفية سياسية أو العكس، تترك وراءها العديد من المناصرين أو المخالفين...

ولكنها ستبقى في نظرنا تحركات معبرة عن حاجة المجتمع المسلم في لبنان المتفاعل معها سلباً أو ايجاباً، رضى أو سخطاً، وعن مدى ما تتمتع به الدعوة الاسلامية من رصيد وترحيب في هذا المجتمع، وعن الافتقار الشديد الى تعزيزها بشتى الوسائل وتعميق جذورها في النفوس ودعم ركائزها الفكرية والبشرية إلى أبعد الحدود...

الكيانات المذهبية والتنسيق معها:

على انه بالاضافة الى ما سبق لا يفوتنا هنا ان نشير الى ما يقوم على الساحة اللبنانية من تعدد المذاهب وتعدد نشاطاتها بالتالي، وما قد يصحب ذلك كله أحياناً

من إشكالات دينية ومذهبية معقدة، قد تكون سبباً في إعاقة مجرى الدعوة الإسلامية، ولكننا مع ذلك وبفضل الله وفقنا الى ان تظل مسيرتنا مشفوعة بالتعاون البناء والتنسيق المثمر في كل المجالات بين المراجع العليا، وبما ينعكس على مصلحة الجميع قوة وثباتاً وصموداً، وبخاصة في وجه التيارات التي سبق وأشرنا إليها، سواء منها التبشيري أو الاستعماري او السياسي المنحرف...

ز- الاتجاه إلى التنسيق بين الكيانات الإسلامية

اضرار التعدد في الكيانات:

لئن كانت ظروفنا الاجتماعية السياسية، اقتضت منا في كثير من المناسبات والمواقف ان نتجه الى التعاون السياسي والاجتماعي مع مواطنينا من كل الملل والمذاهب، فالاحرى ان نعود الى أنفسنا كجماعة مسلمة، ذات عقيدة واحدة وتراث واحد وقضايا مصيرية واحدة، لنقيم وحدتنا وأخوتنا على أساس من ذلك؛ في

تنسيق محكم وخطة موحدة. فتعدد الهيآت والجمعيات والكيانات الاجتماعية بل والدينية، يطرح احياناً مشكلة العمل الإسلامي من منطلقات متباعدة أو متعارضة وما يرافقه في بعض الظروف والملابسات من متاعب إجتماعية بسبب تنافس العاملين، بل وما قد ينبثق عنه من تدابر وتشاحن وتخاصم ينعكس على مسار الدعوة تخلفاً ووهناً.

التنسيق بينها:

ولذلك كله كان لا بد من مساع تبذل على كل صعيد، وبصورة متواصلة، ومع كل الفرقاء المسؤولين ذوي الشأن في هذا المجال لربط العمل الاسلامي المتشرذم برباط تنسيقي يوائم بين وسائل وأهداف مختلف الاطراف من جهة، وبين وسائل المركز الأم الذي هو دار الافتاء في الجمهورية اللبنانية وما يشرف عليه بالفعل.

ولقد سعت فعلا دار الافتاء في هذا السبيل فنجحت بعقد العديد من اللقاءات والمؤتمرات بين كل الاطراف المعنية أو أهمها، وأجرت بعض الضغوط في المؤتمرات الاسلامية العالمية للتوصل الى تحقيق خطوة ما تضمن

تحقيق هذا التنسيق المنشود حتى توصل المؤتمر الاسلامي الذي عقد أخيراً في كراتشي من ١ - ٣ شعبان ١٣٩٨هـ الى إقرار مبدأ التنسيق على كل صعيد بين القوى الاسلامية العاملة، ثم عقب عليه المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي في مؤتمره العشرين فأوصى بإنشاء المجلس المحلي لتنسيق العمل الإسلامي في لبنان الذي نأمل ان يأخذ طريقه للظهور في أقرب فرصة علَّ الله يحقق على يديه الكثير؛ فيجمع فلول العمل الاسلامي في لبنان ويوحدها...

التحدّيات الأساسيّة المستقبليّة لمسار الدّعوة

التبشير والاستعمار لم يعودا الوحيدين:

كانت الدعوة الاسلامية في الماضي، تلقى في لبنان تحديات المؤسسات التبشيرية التي تحدثنا عنها من قبل، وكذلك الاستعمار على اختلاف ما كان لهما من أغراض وأساليب.

واليوم، وبعد ما ينوف على ثلاثين سنة خَلَت عقب

الاستقلال الذي أعلن به زوال سلطة الانتداب عسكرياً، والتبشير ما يزال موجوداً بعافيته الموفورة يلعب أدواره بتوسع وبصورة مكشوفة وأساليب اكثر فاعلية وأبعد تأثيراً، وكذلك الاستعمار الذي ما يزال، رغم انحساره عسكرياً، قائماً من خلال الدستور والانظمة والقوانين والمناهج التربوية والاقتصادية والمالية وأجهزة العمل في الإدارة كافة، فقد أصبحت الدعوة الاسلامية تجابهها بمعطياتها الحديثة مضافا اليها تحديات العصر الحديث.

التغيير العجيب:

فالمجتمع العربي المسلم اليوم لم يعد كما كان منذ نصف قرن تقريباً؛ فقد تغير نظام الحكم في لبنان، وتقلبت عهود وعهود، وزالت في الجوار دول وعروش وانظمة، وقامت على أنقاضها دول وأنظمة ورجال. وتبدل وجه الحياة وظهر البترول وتدفق المال من كل حدب وصوب، واندفع الناس في تطوير معاشهم ومجاراة الغرب في كثير... وظهرت حاجة المجتمع الى العلم فنما عدد المدارس على كل المستويات، وارتفع عدد المتعلمين وعدد

حملة الشهادات العليا والمتخصصين في كل فروع العلم. واتسعت ثقافة الناس وعلت مستوياتهم الفكرية والاجتماعية.

التطور والتقدم المذهلان:

ولم يكن هذا الواقع المتقدم ظاهرة خاصة بهذه المنطقة، بل كان نتيجة تقدم مذهل في معطيات العلم والفكر الانساني؛ فقد ظهرت لها منجزات حديثة في وسائل النقل على اختلافها من بري وجوي وبحري، ووسائل العلاج الطبي تشخيصاً وجراحة ودواء، ووسائل التعليم في كل مستوياته، وتطورت مناهج الاقتصاد وأنظمته في العالم كله، واندفعت الصناعة الحديثة في تزويد حياة الانسان بالغريب العجيب مما لم يكن يحلم به من ذي قبل. وتداخل الاخذ والعطاء بين المجتمعات، بعد ان اختصرت بينها المسافات وتدانت فيما بينها حتى تسارع معه نمو فكر الانسان وقفز تطور مجتمعاته قفزاً مدهشاً حتى أصبح يعيش في ظروف وأجواء ومساكن ويستخدم من وسائل الحياة والتعامل، هي بالنسبة لمن سبقوه أخيلة وأحلاماً.

لقد غاص الانسان اليوم في أعماق البحار، وكشف اللثام عن كثير من مجاهيلها، وسبر مجاهل الفضاء حتى وصلت مراكبه القمر وغيره من الكواكب، وأقام لنفسه أقماراً اصطنعها ليستخدمها في صالحه، وأماط الغطاء عن داخل جسم الانسان فرأى كل شيء فيه، وهو حي يخفق بالحركة والنشاط، وسخر الآفاق وطوعها لمصلحته، فكان له الهاتف الذي قرب البعيد، وكان له التليفيزيون هذا الجهاز العجيب، وكانت له الطائرة وغير ذلك كثير مما لا سبيل الآن لاستعراضه. كل ذلك زاد في تيسير اختلاط الإنسان وتقاربه وتيسير اختلاط فكره وعلمه وأخلاقه وتأثر بعضه بالبعض الآخر الى حد بعيد، مما طور حياة الناس ومجتمعاتهم وطور حاجاتهم وأساليب عيشهم ووسائلها وابتدع لهم حاجات جديدة انقلبت مع الزمن جزءاً ضرورياً من حياتهم، كل ذلك ثمرة تقدم المعطيات العلمية والاجتماعية والفكرية...

تحديات المذاهب السياسية:

وهل يمكن، ونحن نسوق أنماطاً من تحديات العصر

للدعوة الإسلامية، أن ننسى تحديات المذاهب السياسية المختلفة من الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية، وما تقذف به كل منها من مناهج فكر وسياسة واقتصاد، أو تقوم به من نشاط هادف على كل صعيد لإرساء مفاهيمها وترسيخ قدمها وتفشيل ما لدى خصومها؟... وكذلك تحديات المذاهب الفكرية الإلحادية والانحلالية والباطنية وما ينشأ بينها كلها من نزاعات تترك آثارها في محيطها، هذه الآثار التي كثيراً ما تعمل على تشويه معالم الحق؟!

الصراعات العربية والمشكلة الفلسطينية:

بل هل نجاوز الحقيقة اذا قلنا إن هذه الدعوة اليوم أصبحت تجابه بالاضافة الى ما سبق، تحديات الصراعات العربية السياسية التي جدَّت على الساحة اللبنانية، بسبب قيام اسرائيل وظهور المشكلة الفلسطينية بالتالي، ثم ما تمثله هذه الصراعات وكذلك خلفيات المشكلة الفلسطينية، من نظريات سياسية واجتماعية تلتقي وتفترق في قليل أو كثير مع الفكر الإسلامي الصحيح،

ومع ما يواكبها كلها من نزاع المصالح الدولية والصهيونية بمشاكل الشرق الأوسط؟!

على الدعوة المواجهة:

ان الدعوة الاسلامية اليوم، وأمام هذه المتغيرات العامة كلها، تجد نفسها وليس لها سوى خيار واحد، هو مواجهة هذه التحديات العصرية كلها، بالشكل الذي تحافظ فيه على حدود الاسلام ومعالمه وفرائضه وفضائله، وتتكيف في الوقت نفسه مع الواقع الجديد.

التحرّر من الأساليب القديمة
والشكليات غير الأساسيّة

ولكي تنطلق في هذا المسار الحديث أصبح لزاماً عليها التحرر من كثير من الأساليب القديمة والشكليات التي لا تمتّ الى الأصول بصلة أساسية، مسترشدة في ذلك بأحدث ما انتهى اليه الفكر البشري في هذا المضمار.

ومن هنا كان لا مناص من حياطة الكفاءات الإسلامية ثقافية أو اجتماعية أو دينية أو اقتصادية أو

صناعية أو سياسية أو غيرها، بالعناية الكاملة، بعد إحصائها وتبويبها ثم إطلاقها للتحرك والعمل البنّاء في إطار من التنسيق الدقيق المقترح في الدورة العشرين للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، في مؤسسات إسلامية فاعلة، موزعة توزيعاً مدروساً في مختلف أنحاء الجمهورية وذلك في مجالات من أهمها:

أ - إنشاء كلية للدراسات الاسلامية على المستوى الجامعي لتكون مكملة لأزهر لبنان فيتخرج منها الدعاة على أعلى المستويات.

ب - إنشاء مراكز تثقيفية إسلامية تضم قاعات للتدريس لجميع التلاميذ في غير أوقات الدراسة لتلقي العلوم والمعرفة الدينية.

ج - تطوير أنظمة العمل في الإدارة الدينية، وتطوير الأجهزة العاملة، واختيار أعلى الكفاءات لها وللدعوة، لتكون قادرة في مستوياتها الفكرية والعلمية والثقافية.

د -

رفع التعويضات والمكافآت والأجور المالية

للعاملين في الحقول الدينية الى مثل مستوى من يماثلهم من العاملين في حقول التربية والتوجيه والارشاد.

هـ - إعتماد وسائل التربية والإعلام الحديثة على اختلافها من الإذاعة الصوتية، والإذاعة المرئية، والسينما، والمسرح، والصحافة والكتاب، والنشرات، والمكتبات، بل واقتحام مجالات الفن البريء، والرياضة، وتجمعات الشباب والرحلات والمؤتمرات، بحيث تطوع كلها وغيرها لتكون في خدمة مقاصد الاسلام وأهدافه السامية، وفي الحدود التي يسمح بها الدين ولا يتصادم معها، خصوصاً وأنه دين الحياة الذي يواكب تطورها ويماشي حاجات الانسان ما تقلب الدهر وما جدَّت فيه من احداث.

و - تطوير وتنمية الموارد المالية بحيث تصبح قادرة على تغطية نفقات هذا كله ولا تبخل في عطاء ولا تمسك عن بذل ما فيه خدمة الحق والخير والانسانية.

ز - تعديل المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ بحيث يوسع فيه تمثيل الكفاءات الإسلامية والمناطق أيضاً وتتسع لمزيد من اللجان العاملة في مختلف الحقول التي تتطلبها حاجة المجتمع المسلم بالاضافة للموجود منها.

ح - تمكين المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في ضوء هذا التعديل بحيث تكون له سلطة الإشراف الدقيقة على جميع المؤسسات الإسلامية في مختلف مجالات عملها، والتنسيق بينها ليتحقق من ذلك اتحاد الأطراف للجسم الواحد، وارتباطها كلها بمرجع مسؤول واحد، في ظلِّ المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى وأنظمته المعتمدة.

ط - نبذ الفكرة القائلة بمنع رجال الدين من التدخل في السياسة نهائياً، لأنه ليس في الإسلام رجل دين ورجل لا ديني. بل الجميع رجال ينتمون الى الإسلام يدينون بعقائده وتشريعاته وحدوده وآدابه. والكل ملتزمون بالعمل في نطاقها

والمحافظة على سلامتها في نفوس الأفراد وفي المجتمعات والجماعات.

ي ـ الاجتهاد قدر الامكان بتعزيز مكانة الدور الديني بين العاملين في الحقول الإسلامية من خلال أنظمة وقوانين يشرعها المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى تضبط مسار الدعوة وتنجي من بروز المواقف والآراء الناتئة فردية كانت أو غير ذلك المسيئة الى الإسلام والى الجماعة الاسلامية...

كل هذه المقترحات وغيرها ما تزال اهدافاً تراود أذهان المصلحين ويتطلعون اليها ولكن دونها العقبات والمتاعب الجسام. ولا مناص لكي يظل خط الدعوة ومسارها متطابقاً مع أدق دقائق حياة المسلمين وناجحاً كل النجاح، من أن تدخل في سياق معاشهم تخط من الداخل كيانهم وترسم آمالهم وتحدد اهدافهم وتنطلق معهم وبقوّتهم الى الامام حتى تحقق لهم العزة والمجد المنشود.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

فهرس عام

هذا الكتاب

وثيقة تاريخية تهمّ كل دارس لأوضاع لبنان.

وتفيد كل راغبٍ في معرفة الحقيقة بإنصاف وداعيةً الى المعرفة بين أبناء الطوائف تأكيداً للخط الحضاري الذي يدعو إليه العقلاء، والمؤمنون، والأخيار...

دار الدعوة